اليتيم

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك : 978-9931-06-106-9
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2020.

تُعنى سلسلة حلم بالمواهب الأدبية الشبابية. تندرج ضمنها مؤلفات شباب تتوسّم فيهم دار خيال القدرة على تبوأ مكانة متقدمة في عالم الإبداع.

حلمك_يتحقق.

أيمن علّو

اليتيم

رواية قصيرة

الإهداء

شكر خاص لوالدتي عبو حورية التي رسمت لي المسار ودفعتني للسفر بين الأسطر والكلمات.

تحية لوالدي علو مصطفى الذي اشترى لي تذكرة السفر وسمح لي بذلك.

لأختي علو فاطمة وعلو مارية لكما الكثير من الحب ودفء داخل قلبي فأنتما نور حياتي.

تحية لكل أصدقائي وأهلي وأقاربي.

تحية لكل أم ناضلت وأفنت شبابها لتربية ورعاية أولادها.

تحية لكل يتيم ذاق مرارة الحياة حتما ستجد نفسك متجولا عبر سطور روايتي تتجرع مرارة الأحاسيس وتتذوق الألم.

كان الجو مشمسا، حيث تعالت كرة النار في وسط السماء منذ ساعات باكرة وكأنها تعطي الإشارة لبدأ النشاط والحركة، كانت الأسواق مزدحمة بالزبائن المارين حول الدكاكين لابتياع ما يلزمهم من أغراض، تتعالى صيحات البائعين ليشيدوا بجودة سلعهم وبخس ثمنها.

تجول **أمير** عبر الدكاكين لاقتناء ما يلزمه من أغراض لكن كل هذا دون جدوى وها قد بدأت تظهر عليه علامات الضجر والجوع وتجمعت حبيبات العرق على جبينه من كثرة التجوال.

بعد مرور الزمن بدأ الباعة ينصرفون من السوق فمنهم من أوصد دكانه ومنهم من يجر عربته راضين بنصيبهم وما كتب لهم الله من رزق في هذا اليوم فهذه أحوال الناس في هذه الأيام أو بالأحرى حال التجار فهم يسعون جاهدين لسعي وكسب لقمة عيشهم ففصلا الربيع والشتاء بمثابة المخلص والمنجي لهم لتجميع بعض المال لإعالة أسرهم والادخار منه للإنفاق عليهم وقت الحاجة.

ففصل الشتاء يتسم بالبرودة وكثرة الثلوج في مرتفعات الجبال والمناطق المجاورة لها.

اتجه **أمير** نحو السوق الذي يستغرق وقت الوصول إليه 20دقيقة سيرا على الأقدام.

رجع هذا الطفل الذي يبلغ من العمر حوالي 13 سنة خالي اليدين وعلامات الحسرة والاستياء بادية على وجهه

فلم يكن في جعبته سوى بعض دنانير ترن في جيبه وكأنها في كل رنة تذكره بعددها القليل وبغلاء المعيشة هذه الأيام.

وصل أخيرا إلى المنزل مطلقا إنذار الجوع والتعب، هذه هي الحياة في القرى تفرض على الأطفال أن يكونوا رجالا منذ صغر سنهم.

أمي... أمي...

الأم منهمكة في الأعمال التي تقوم بها فقد كانت صباحا هي التي تعطف على ابنها الوحيد الذي لا تملك غيره وقد كانت مشهورة في تلك القرية الصغيرة بالحياكة وتطريز الثياب وأزياء العرائس المختلفة فقد توارثت هذه الحرفة عن أمها فمعظم نساء مدينة قسنطينة أو ما يصطلح عليهم **بالبلديات** يتقن حرفة التطريز على غرار صنع الحلويات التقليدية والكثير من الحرف العريقة التي أبت الزوال.

الأم صباح: نعم يا بني ماذا تريد؟

أمير: أين نصيبي من الغداء أكاد أموت جوعا يا أماه.

الأم صباح: حسنا أنا قادمة.

نهضت الأم من مكانها بعدما تقوست خاصرتها من الجلوس على البساط منهمكة في تطريز زي للعروس خديجة بنت جارتها.

ناولته طبق الغداء وبعض قطع الخبز وكوب الماء؛ جلس بلهفة على الطاولة ليتناول طعامه وكأنه جندي في معسكر نال منه التعب.

رفع الغطاء عن الطبق بلهفة كبيرة بعدما نال منه الجوع.

أمير: لا يا أمي ما هذا؟

الأم صباح: ماذا حصل ماذا هناك؟

أمير: حساء خضر يا أمي حساء خضر أيعقل هذا؟

الأم: كفى تذمرا أمير حساء الخضر جيد هو يحتوي على العديد من الفيتامينات والألياف المفيدة للجسم.

هذه العبارات الوحيدة أو الجمل التي تستخدمها صباح لتبرير الموقف في كل مرة، فالفيتامينات والألياف هي الكلمات التي تعرفها أو تعلمتها.

فهي كسائر بنات الجيل القديم لم تحظ بفرصة لمزاولة مقاعد الدراسة، فهي بالكاد تجيد الكتابة أو ما تسميه كتابتها الخاصة حيث لا يفهم أي قارئ ما تكتبه، هذه هي الأحرف الراسخة في ذهنها منذ زمن بعيد منذ أيام دروس المساجد وأيام القلم والصلصال والدواية فقد شقت بهذه اللغة نورا وسط ظلمات الجهل.

تناول الولد بعض قطع الخبز من على الطاولة وغادر المطبخ باتجاه الخارج محاولا تدارك غيضه متحدثا مع نفسه.

اليوم ليس جيدا منذ بزوغ فجره؛ تجوال لساعات في السوق دون جدوى من اقتناء أي شيء وختامها حساء خضر.

لم يكن لصباح حيلة اتجاه استياء ولدها فهي بالكاد توفر قطع الخبز وبعض الحبوب فغلاء المعيشة وقصر اليد وكثرة المتطلبات مصدر ألم لرب البيت.

فقد تولت صباح شؤون البيت ومصاريفه منذ سنوات حيث إنها تخفي في جعبتها الكثير عن ذلك اليوم المشؤوم.

كان الجو باردا جدا حين اجتمعت صباح مع زوجها حسان حول الموقد الذي كان يقاوم برد الشتاء بصعوبة يتبادلان أطراف الحديث تارة ويتغزلان بابنهما تارة أخرى.

فجأة طرق الباب وعلامات الحيرة والقلق ارتسمت على الوجوه، بادرت **صباح** بالسؤال يا ترى من الزائر في هذا الوقت المتأخر وفي هذا الجو البارد.

حسان: الله أعلم يا صباح عساه خيرا إن شاء الله.

تقدم حسان بخطوات ثابتة باتجاه الباب مخفيا علامات الحيرة التي ارتسمت على وجهه.

فتح الباب وهو يحمل قنديلا صغيرا لكشف الطريق أمامه وبمجرد فتحه للباب رفع القنديل ذا الضوء الخافت للكشف عن وجه الزائر.

حسان: أحمد خيرا إن شاء الله ما الذي جاء بك؟

أحمد: لقد جئت طالبا المساعدة زوجتي أمينة تتألم كثيرا ولا أعرف ما بها وتصاحبها تيارات تارة بالبرودة وتارة بالحرارة وأحيانا يغمى عليها ولا أدري ما السبب.

حسان محاولا تهوين الوضع بقوله خيرا إن شاء الله لعلها تناولت شيئا لم تتحمله معدتها أو لعله المخاض فالنساء الحوامل تحدث معهن مثل هذه الأشياء.

يتحدث حسان بثقة وثبات وكأنه عجوز طاعنة في السن.

أحمد: لا أظن هذا فهذا المولود الثاني ولم يسبق أن حدثت مثل هذه الأعراض مسبقا.

سادت لحظات صمت تخللها الخوف من المجهول.

حسان: وما هو المطلوب مني يا أحمد؟

أحمد: أريد أن تأخذني بعربتك للطبيب بومالي الساكن في مدخل القرية لعله يعالجها.

أخرج حسان العربة الخشبية أو ما يسمونه الكاليش مسرعا مع رفيقه أحمد لنجدة زوجته أمينة من ألمها الذي حل عليها دون سابق إنذار أو تحذير.

تعاون حسان وأحمد لوضع أمينة في المقعد الخلفي للعربة مسارعين باتجاه بيت الطبيب فقد تأكد حسان أن الوضع حرج ولا يبشر بالخير.

انطلق حسان مسرعا بالعربة راكبا مطية الخطر فالجليد غطى الطرقات فلا يكاد الراجل التوازن فما بالك العربة ذات العجلات الخشبية كما أن الطبيعة القاسية في مرتفعات الجبال كانت دائما تشكل عائقا أمام البشر وها هي أيضا اليوم تلعب دورها ككل مرة.

عقد حسان العزم على الوصول بسرعة متخطيا كل العقبات التي تعترضه.

نادى حسان أحمد ها هو بيت الطبيب بومالي ها قد شارفنا على الوصول.

أحمد: لا تخافي يا أمينة لا تقلقي ستكونين على ما يرام بإذن الرحمان.

كانت أمينة تسمع كلمات زوجها لكنها غير قادرة على تحريك شفتيها إلا من صوت الأنين والألم.

• هذه هي الحياة تارة تعطينا وتارة تأخذ منا ولكن أبشع شيء فيها أنها تعذبنا مخلفة ألما كبيرا في نفوسنا حتى نفوس الناس الأعز إلى قلوبنا فهي تجعلنا نرقص على نغمات الألم رغما عنا.

توقفت العربة عند بيت طبيب تحت صهيل الخيل سارع أحمد لدق الباب مرارا وتكرارا لكن ما من مجيب، بدأت تظهر علامات الخوف على أحمد خاصة أن وضع زوجته ساء حتى أنينها انقطع عاضا على أطراف الندم لإهمالها فمنذ الصباح الباكر وهي تشتكي من مرارة الألم وهو يتجاهل الأمر قائلا إنه أمر عادي، ضمن كل هذا السكون فتح الباب وإذ هي امرأة تضع على رأسها وشاحا ويتدلى من رقبتها سلسال فيه نجمة داوود.

من خلال هذا الشكل أدرك حسان وأحمد أن المرأة يهودية.

سارع أحمد باتجاهها وقال:

- أين الطبيب بومالي زوجتي في حالة حرجة أرجوك؟

- أنا ماري زوجة الطبيب لكنه غير موجود في البيت فقد ذهب لتفقد أحد مرضاه ولم يعد بعد.

كاد أحمد يسقط أرضا يعض على أصابعه ندما محملا نفسه مسؤولية كل شيء فلو أنه أسعفها منذ الصباح لما كانت في هذه الحالة الحرجة.

خلال هذه اللحظات جاء صوت من البيت:

- حسنا يمكنك إدخال المريضة أنا سأعالجها؛ كان هذا الصوت لكارمن ابنة الطبيب فهي فتاة في عقدها الثاني من العمر جميلة المظهر مؤدبة تدرس في شعبة الطب.

كان صوت كارمن قارب نجاة تمسك أحمد بحباله بقوة.

كارمن: لا تقلق إنها مهنتي أنا أدرس تخصص الطب في الجامعة فضلا عما تعلمته من والدي لهذا لا تقلق سأعمل جاهدة لعلاجها والتخفيف عنها.

في هذه الأثناء رسم أحمد ابتسامة خفيفة قائلا الحمد لله الحمد لله.

فعائلة الطبيب بومالي كانوا من الذين يعتنقون الديانة اليهودية على غرار أهل القرية لكن هذا الاختلاف لم يشكل أي فرق لأي أحد فحرية المعتقد والتدين كانت من مبادئ الدين الإسلامي لقوله تعالى **{لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين} سورة الممتحنة الآية 8.**

فالإسلام لم يدع لمحاربة أهل الديانات الأخرى ومقاطعتهم خاصة أهل الكتاب (النصارى، اليهود) فهم أقرب للتقوى فمجالستهم ومعاملتهم ومخالطتهم من الأمور التي استحسنها الدين الإسلامي لكن وفق ضوابط وشروط ومنها أنهم لا يمارسون طقوسهم خاصة علنا وأنهم يتركون قتال المسلمين ولا ينشروا ويروجوا لديانتهم وألا يقربوا ويمسوا بالمقدسات.

مد أحمد وحسان يديهما لحمل أمينة التي كانت غائبة عن الوعي تماما، فتحت ماري الباب وأعطتهما إشارة الدخول دالتهما على طريق الصالون لوضع المريضة هناك.

فتحت كارمن حقيبتها وأخرجت أغراضها الطبية أخلت المكان وطلبت من الحضور الانتظار خارجا لتفادي محاولات إرباكها فهي ترى التساؤلات المرسومة على وجه أحمد وتخشى أنها لا تملك الإجابة عنها.

بعد مرور القليل من الوقت فتحت كارمن باب الصالون شاحبة الوجه تحاول إخفاء علامات التواري على وجهها راسمة ابتسامة باردة قابلها أحمد بكم هائل من الأسئلة كيف هي؟ ما هو داؤها؟ هل ستكون على ما يرام؟

ردت كارمن محاولة تهوين الوضع لا تقلق.

طلبت كارمن من أمها ماري إحضار بعض المستلزمات للتحضير للولادة المبكرة.

●صحيح من قال إن مشيئة الله وقدره يغير كل حسابات ومخططات البشر ●

فالحياة كثيرا ما تقحمنا في مواقف لا وجود لخيار ثالث أو حل وسط فيها إما أن تكون أو لا تكون.

طلبت ماري من أحمد وحسان النزول والانتظار في القبو لأن حركتهما كانت تربكها كثيرا أو بالأحرى محاولة إبعادهما عن الألم.

هذه هي حال الأطباء يحاولون إبعاد المريض عن أهله فألمه يزيد ويتضاعف عندما يرى من حوله عاجزين وخاصة ألم القلوب هو أعظمها.

عادت كارمن إلى أمينة المرمية كقارب تلهو به أمواج البحر هكذا هو حالها لكن الفرق الوحيد أن أمواج الألم هي التي تلهو بها في هذه الحالة.

ها هي ذا كارمن تحاول إخراج الطفل من جوف الأم لكن كل محاولاتها باءت بالفشل فنوبات الإغماء تتطفل في كل مرة مخربة كل شيء حاولت وحاولت لكن دون جدوى، اتجهت مسرعة إلى مكالمة أبيها وطلب نجدته والرجوع بسرعة لأن ناقوس الخطر على وشك أن يدق ولحسن الحظ أن الطبيب بومالي قارب على الوصول للبيت ومن يدري لعله يكون خيط الأمل تتشبث به أمينة للنجاة.

دخل الطبيب مسرعا إلى بيته بينما كارمن تحاول إيقاظ أمينة من إغمائها وعلامات الخوف والحزن بادية على وجهها فمهنة الطب مهنة إنسانية قبل كل شيء كون الطبيب في هذه العملية هو قارب النجاة الذي يرمي لمساعدة المريض.

دخل الطبيب بومالي مسرعا للكشف على المريضة فبادرته كارمن إنها **المرارة** يا أبي، توسعت حدقتا عينيه وقال:

- حقا هل أنت متأكدة؟

كارمن: نعم يا أبي أنا متأكدة من ذلك.

أعاد الطبيب فحصها للتأكد لكن ها هي خيبة الأمل فكارمن على صواب، وما زاد الطين بلة هو أن الأم على مشارف الولادة.

أعطى الطبيب ابنته إشارة البدء في عملية الولادة التي بدت لهم في ظل هذه الظروف أنها أصعب من خوض حرب ففي الحرب عدوك معروف لكن هنا العدو مخفي قد يغرز سيفه في أحشائك في أية لحظة دون علم.

■كم عظيمة هي الأم فالشمعة تحرق نفسها لإنتاج الضوء والأم تصارع الظلام لإخراج مولودها لنور الحياة■

فقط قبل بضعة أيام تبادلت أمينة وزوجها أحمد أطراف الحديث؛ لكن أي أنواع الكلام فقد كانت تطلب من أحمد تحلفه بالله أن يربي ابنتها البكر أحلام التي لا زالت بعمر الزهور ويعلمها لتصبح شيئا كبيرا في المستقبل ومصدر فخر لهما وأن الجنين الذي في جوفها إن كان طفلا ستسميه جواد وإن كان صبية ستسميها زينب على بنت الرسول ﷺ؛ ويعدها إن حدث مكروه لها سيرعاهما ويحميهما، سادت لحظات من الصمت والدموع تذرف من عينيها.

أحمد قائلا: لا حول ولا قوة إلا بالله ما هذا الحديث يا أمينة بالله عليك ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

أمينة: أنا أعرف لكن عدني ليطمئن قلبي لا غير.

أحمد: حسنا أنا أعدك.

كانت كل هذه الكلمات تختلج في خاطر أحمد وهو جالس في قبو يفكر ويفكر ثم يستعيذ بالشيطان ويناجي الله بأن يحميها ويحفظها من كل سوء.

فقصة حبهما معروفة لدى جميع أهل القرية فهو الفلاح النشيط في عمله حنون القلب يساعد المحتاجين فكان نصف محصوله موجها للفقراء والأرامل وهي البنت اليتيمة التي كفلتها إحدى أسر القرية واعتنت بها منذ الصغر وحمتها من ذئاب البشرية بعد وفاة جميع أفراد أسرتها في حريق التهم البيت ومن فيه ونجت وكأنه انكتب لها عمر جديد.

كبرت أمينة في عائلة ميسورة الحال لم يفرقها كفيلها عن بقية أولاده متبعين قول خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم (خير البيوت في الإسلام بيت فيه يتيم يحسن إليه) فاليتيم وسيلة لكسب رضا الله وجلب الرزق والبركة للأسرة فكفلتها رقية ربتها كإحدى بناتها وغمرتها بعطفها وحبها وحنانها وعلمتها شؤون المنزل والطبخ والغسيل وغيرها فكبرت هذه الفتاة اليتيمة ولم تحس ليوم أنها أقل شأنا أو قيمة من باقي الأفراد فقد كانت الطفلة المدللة ومن حسن حظها أنها نشأت بين أيدي تخشى الله.

كعادتها خرجت أمينة لجلب الماء من بئر القرية قبل تزاحم الناس عليه فالبئر أصبح كعمود على الجريدة لعروض الزواج فهناك يتجمع الشباب يراقبن الفتيات بدقة وعند إعجاب الشاب بواحدة يبعث أهله لخطبتها مباشرة هذه هي أيام الحب في الزمن الكلاسيكي حب فوق مستوى الشبهات، لكن أحمد لم يكن كباقي الشباب في تفكيرهم فقد كان مهتما بعمله ويؤمن أن كل شيء يأتي بما كتبه الله.

قلب أحمد تربة الحقل ورش عليها أسمدة لتكون جودة المحصول جيدة وبعد ساعات من العمل نال منه العطش والتعب واتجه ناحية البئر ليشرب الماء ويغسل جسده من غبار الحقل وفي حين تتجه أمينة نحو الحنفية التي استصلحها السكان للحد من تبذير المياه وفجأة تتدافع الأغنام لشرب الماء واللعب بالماء متجمعة على شكل برك صغيرة أمام البئر مخلفة فوضى عارمة وهذا ما منع أمينة من ملء قربتها فاتجه أحمد إليها مادا يد العون.

وها هي الأعين تتشابك ودقات القلب تتسارع فجمال أمينة أسقط الفريسة أرضا من غير قصد، فهي صاحبة الأعين الكبيرة ذات اللون الرمادي وما زادها جمالا كحل عينيها؛ حاجبان عريضان لونهما السواد، خدود موردة بالحياء والحسن، ضفائر طويلة كأنها خيوط حريرية، هذه هي الفتاة العربية بنت البادية والقرية كل شيء فيها معيار للجمال والأناقة.

سادت لحظات صمت وهو يتأملها بصمت وهي تبادله النظرات فبادرها بالكلام دعيني أساعدك، مدت يدها ملونة بالحنة منقوشة بأحلى الرسوم فزادته تعلقا بحسنها.

ناولته أمينة قربة الماء لملئها وعلامات الحياء على وجهها.

أحمد: تفضلي ها قد أنهيت ملأها.

أمينة: شكرا سلمت يداك.

لسان معسول يجذب النحل على بعد أميال فالمرأة لا تقاس فقط على هندامها وشكلها وجمالها كما أن التواضع والأدب وحسن الخصال أهم من الشكل.

أحمد: لم أرك من قبل بنت من أنت؟

أمينة: أنا أمينة بنت عمر صاحب الدكاكين.

أحمد: العم عمر ما شاء الله ما شاء الله اللبؤة بنت الأسد.

توردت وجنتاها خجلا وأخذت قربة الماء على عجالة وراحت تركض للبيت وهو يتتبعها بنظراته إلى غاية اختفائها مشاعر متداخلة، قلب يدق بسرعة؛ فرح وسرور وبهجة كل هذه مشاعر كانت تحس بها في نفس الوقت لم تفهم شعورها بعد يدها على قلبها حبيس ضلوع، ربما هو الحب نعم الحب يا له من إحساس.

الحب صدفة يغيرالأوضاع
قلب يعشق دون خداع
كلمات تحكى بالأعين دون انقطاع.

عاد العم عمر للمنزل مبكرا على غير عادته مناديا على زوجته رقية في عجالة، نظرت رقية في ساعة الحائط وخاطبت نفسها، إن الوقت مبكر لمَ عدت الآن تاركا العمل لا شك أنه حصل شيء ما أو وقع أمر ضروري، خيرا إن شاء الله.

رقية: نعم يا عمر أنا قادمة.

عمر: أبشري يا رقية أبشري.

رقية: أخبرني بشرك الله بالجنان.

عمر: سيدخل الفرح بيتنا قريبا.

رقية: إن شاء الله أيامنا كلها فرح لكن هلا شرحت لي.

عمر: هناك من يود التقدم لخطبة أمينة يا رقية وكلمني هذا الصباح.

رقية: ولكن كيف؟ وهل نعرف هذا الشاب؟ وماذا يعمل؟ ومن هو؟ والكثير من الاستفسارات.

عمر: رويدا رويدا إن الشاب معروف والكل يتمنى مصاهرته إنه أحمد.

رقية: الحمد الله الآن اطمئن قلبي ومن يستطيع رفض مثل هذا الشاب يا له من يوم جميل.

كانت أمينة تسترق السمع من المطبخ وهي تحضر القهوة للعم عمر، فهي منذ لقائها مع أحمد سألت إحدى الفتيات عن اسم ذلك الشاب من علق قلبها بخيطه منذ النظرة الأولى، نعم وكيف لا تسأل عن فارس أحلامها.

دخلت أمينة الصالون وخطاها ترتجف على غير عادتها خاطبها عمر ما بك يا أمينة هو يضحك كأنه يعرف خطبها توردت خدودها خجلا ثم أضاف إنك الآن على مشارف الفرح يا ابنتي وهناك من يطلب يدك للزواج فقد أصبحت عروسا وأضاف إن الله يشهد عليّ أني أحببتك وعاملتك كبناتي ولم أنقص عليك شيئا طلبته وأنا أرى أنك كبرت الآن وها قد حان الوقت لأن تؤسسي أسرة وتبني عشك الخاص وتنجبي ليّ أحفادا لألعب معهم، فما هو رأيك يا ابنتي فهذه حياتك وأنت من تقررين.

أجابت **أمينة:** وهل يستطيع الأب أذية بناته أو إلحاق الضرر بهم ويعلم الله ما في قلبي يا أبتي عمر أني وجدت فيك حنان والدي رحمه الله ودفء إخوتي وأنت يا أمي رقية وجدت في صدرك عش الحنان والدفء وجدت بينكم الحب والاهتمام وأنا اليتيمة نفتني كل الأكوان.

تساقطت من الحضور دموع ففتحت جروح الماضي ليس بالأمر الهين فكل شيء ينسى إلا الألم فهو في كل لحظة يخزن كشوكة عالقة بين طبقات الجلد.

ثم أضافت أبتي عمر أنت ربيتني وآويتني ولم تحرمني شيئا فالقرار لك وأنا موافقة مهما قلت واخترت.

عمر: موفقة يا ابنتي بارك الله لك في هذا الزواج وجعلك أميرة لزوجك إذن سأخبر عائلة الشاب للقدوم وتحديد موعد خطبة.

هذه قصة الحب العذري الحب الطاهر الذي لا تنطفئ فتيلته أبد الدهر فالحب شعلة يسهل إشعالها لكن يصعب إخمادها.

اكتملت قصة حب أمينة وأحمد بالزواج.

أمينة بصوت خافت غلب عليه الأنين والتعب:

- أيها الطبيب، أيها الطبيب.

بومالي: نعم يا ابنتي كوني قوية لم يبق سوى القليل.

أمينة: نعم أعلم، أعلم أنه لم يبق لي إلا القليل أيها الطبيب لكن عدني أن طفلي لن يصيبه أي مكروه.

بومالي: أعدك يا ابنتي.

كارمن: هيا ادفعي ادفعي كوني قوية شارفنا على الانتهاء.

خيم الهدود على المكان ما عدا نوبات الصراخ التي كانت تتعالى في كل مرة، وفجأة صوت بكاء طفل صغير؛ سارع أحمد لصعود درجات السلم بلهفة وفتح باب الصالون.

كارمن: مبارك لكما إنها فتاة.

أحمد: الحمد لله إنها فتاة يا أمينة وسنسميها زينب كما تريدين ونربيها وتعيش معنا العمر الطويل.

أمينة والدموع تذرف من عينيها واصفرار كسا وجهها:

- أمسك بيدي يا أحمد أمسك بيدي وشد عليها.

أمسكها أحمد بقوة وقبل جبينها وهو يزدري وضعها الحرج.

أضافت أمينة أتذكر وعدك لي يا أحمد أريدك أن تعتني ببناتي وتسهر على تربيتهم وتعليمهم.

أحمد: نعم سنفعل كل هذا مع بعضنا البعض ونعيش في سعادة وهناء.

أمينة: لا فأنا قد دقت ساعتي هنا معلنة انتهاء المشوار.

أرخت أمينة يدها من بين يدي أحمد ومال رأسها وخرج سائل امتزج بالاصفرار والاخضرار مع دم تلون بالسواد.

أحمد: أمينة ما بك أجيبي هيا تكلمي، أيها الدكتور افعل شيئا أتوسل إليك.

بومالي: انفجرت المرارة وما باليد حيلة، أطال الله عمرك يا بني فهي الآن قد رحلت.

مسرعة والدموع تفيض من عينيها فالطبيب خرجت كارمن هو بمثابة أسرة للمريض فيفرح لفرحه ويتألم لألمه ويحس بالبعد لفراقه.

هذه هي الحياة. تأخذ كل شخص عزيز ! لماذا؟. وما زاد الطين بلة هو "زينب" الطفلة الصغيرة التي بدأت حياتها منذ لحظات.

كل مولود يُستقبل في عائلته بالزغاريد والفرح وتبادل التهاني، إلا هذه الفتاة، من أول ثانية استقبلت بالنواح والنحيب والعويل والألم، يا لها من تعيسة الحظ.

دخل **حسان.** لم يعرف ما يقول لصديقه أحمد سوى "عظم الله أجركم" كن قويا يا أحمد أنت رجل.

وكأن الحزن محظور على الرجال! بكاء الرجل يُبكي الكون ويدمي مهجة الإنسان، فالرجل رغم صلابته وقوته

إلا أنه يملك قلبا، خاصة إذا تعلق الأمر بالذين نحبهم فالرجولة والصلابة ليست في هذا الموقف.

خرج حسان تاركا رفيق حياته مكسور الظهر منحني الجبين ينظر تارة لحبه الذي رحل وتارة لطفلته الصغيرة الباكية وكأنها تحس بفقدان أمها تتجرع مرارة اليتم منذ أول وهلة.

نعم اليتم كثير منا ربما لا يعرف هذا الطعم أن تفقد أعز الناس لقلبك أن يرحل كل من حولك دون سابق إنذار مخلفين فراغا كبيرا في حياتنا خاصة الأم فهي كل العالم، بنظرة من عينيها ينشرح الفؤاد وببسمة منها تعطر الأرجاء وفي حضنها ينشرح الفؤاد نعم الأم هي درة ما لها من نظير تتكدر على خاصرة الألم لتحيينا وتعزف لنا مقطوعات النغم نعم هي الأم، تتقطع شرايين القلب يعزف القلب على أوتار الحزن والألم تتوقف كل مواقيت العالم تدق كل أجراس الخطر يحس بهذه الكلمة كل البشر، اليتم.

في المقابل كانت تصلي صباح وتدعو لأمينة في سجودها وأن يحفظهم الله جميعا من أي مكروه فمنذ خروج زوجها تحس بالقلق انتابها كابوس الخوف إحساس لم يسبق له مثيل من قبل.

حسان وهو يقود العربة شارد الذهن لا يدري ماذا حل بين لحظة وأخرى كم هي صعبة لحظة الموت كم هو مر طعمها.

خلال هذا الحوار الداخلي كانت العربة تسير تلقائيا تتمايل يمينا وشمالا آفلة لجام الخيل وهي تسير تجري بسرعة فوق الطرقات التي كساها الجليد، لا زال حسان شارد الذهن كثير التفكير فرؤية أم تموت وأب على مشارف الجنون من الحزن وطفلة تجرعت اليتم وعمرها دقائق ليس بالأمر الهين.

زادت سرعة الحصان في الطرقات الجبلية متعرجة إلى أن ارتطمت عجلة العربة بصخرة كبيرة على حافة الطريق وهذا ما أفقد العربة توازنها وجعل الخيل تخاف من أثر شد العربة على جسمها وهي تجرها أرضا، واصلت الخيل مشوارها وحسان يقف على حافة عصا خشبية تربط العربة بالحصان يحاول إيقافها حاول مرار وتكرارا للإمساك بلجامها لكن دون جدوى وخلال هذه العملية وفي هذا الوضع الحرج تنعطف العربة ويسقط حسان في جوف الواد.

فهذا الواد مكان مخيف عميق جدا تتخله الكثير من الصخور الكبيرة المصطفة كأنه فاه فاغر ينتظر الطعام كان هذا الواد منذ زمن مخبأ للثوار والمجاهدين في ظل ثورتهم ضد الفرنسيين المحتلين نظرا لصعوبة تضاريسه وشكله المخيف كما تتخلله العديد من الكهوف التي سكنها مجاهدون وأسعفوا فيها الجرحى وخبؤوا فيها السلاح والمؤونة، كان هذا الواد مخيفا جدا حتى في النهار يتفاداه كل المارين من تلك الطريق نظرا لكثرة المنعرجات وضيق

الطريق والشعور بالدوار بالنظر أسفل هذا الشبح الذي تجسد واقعيا فكم ابتلع من أناس وحيوانات ولا زال كذلك.

أكملت صباح صلاتها وقامت باتجاه المطبخ لتحضير كوب من الشاي لعله يحسن مزاجها والتفكير يأكل أطرافها حضرت الشاي وجلست تشربه وهي شاردة الذهن حتى أفلتت الكأس من يدها وتحول لقطع صغيرة كأنه أحس بصرخة حسان يسقط في جوف الواد أحس بحادث رب البيت الذي يأويه.

صباح: لطفك يا رباه لطفك هذا لا يبشر بالخير مع مطلع الفجر.

مرت ساعات وها هي الشمس بدأت بالظهور غطتها الغيوم الداكنة كأنها تعلن حدادها، في حين صباح تترقب من نافذة البيت لعل حسان يظهر في الأفق وفجأة طرق الباب ذهبت باتجاهه بشوق ولهفة وكأن حسان غاب عنها لسنوات وتنتظره على أحر من الجمر فتحت الباب وقالت هذه أنت أمي زليخة تفضلي تفضلي.

العجوززليخة: وهل تنتظرين أحدا يا ابنتي؟

صباح: والله أنتظر حسان لم يعد منذ ليلة أمس.

العجوز زليخة: لعله بين مجمع الرجال في بيت صديقه أحمد.

صباح: والله لم أفكر في هذا لعله هناك يشارك فرحة صديقه أحمد فقد شارطه إن رزق بطفل بتحضير وليمة لأهل القرية.

العجوز زليخة: يا ليتها كذلك يا ابنتي يا ليت وتمسح عينيها.

صباح: خيرا ما الذي جرى لقد شغلت تفكيري؟

العجوز زليخة: أمينة زوجة أحمد في ذمة الله توفيت ليلة أمس وهي على فراش الولادة أنجبت الطفلة ورحلت لجوار ربها.

صباح: الله أكبر إن لله وإنا إليه راجعون ما هذا الوعد يا رب لطفا بنا.

لعل الحديث هذا أنساها التفكير في زوجها فهي تعرف طبعة محب للخير صاحب أخلاق ومبادئ يعرف واجبه اتجاه أهله وأقاربه.

مضى ذلك اليوم الكئيب حيث تم تشييع جنازة أمينة وقد أبكت كل صغير وكبير مخلفة خلفها أثرا كبيرا بين أهل القرية لا سيما ابنتها زينب التي لم تذق حتى قطرة حليب من أمها لم تتسن لها فرصة شم رائحتها وتذوق حنان حضنها.

فالكل يتكلم عن علبة القدر ها هي قسمة أمينة رحمها الله تتكرر مع ابنتها زينب والفرق الوحيد أنها تملك أختا أكبر منها وأبا لعلهم يشدون ظهرها ويخففون كربتها ومن يدري.

صباح تحاور نفسها: ها هي الشمس على مشارف الغروب وحسان لم يعد بعد ولم يحضر مراسم الدفن فقد سألت كل فرد عنه ولكن لم يره أحد.

صباح: خيرا يا رب خيرا، أنسب شيء أن أحدث شيخ القرية وأخبره بالأمر.

فجأة تسمع صهيل الخيل الحمد الله لا بدّ أن حسان أتى للمنزل تجري بلهفة نحو الباب لكن سرعان ما تطلق صيحة وتنادي.

نعم لقد رأت الخيل تنزف من الجروح التي خلفتها العربة التي كانت تجرها دون عجلة وعربة محطمة كليا؛ انتابها خوف شديد لعل حسان أصابه مكروه.

جرت وهي في تلك الحالة الهيستيرية باتجاه بيت شيخ القرية وهي تنادي يا شيخ... يا شيخ.

سمع المنادى اسمه على لسان أحدهم فخرج مسرعا قائلا من ينادي في هذا الوقت خيرا إن شاء الله.

وصلت صباح وهي حافية القدمين عارية الرأس ترتدي الثوب المنزلي بغير عادتها فالمرأة الجزائرية عند خروجها من بيتها تحجب مفاتنها وتستر زينتها ترتدي شيئا فضفاضا وساترا كالحايك أو الملاية فهذان لباسان ميزا كلا من مناطق الشرق والوسط الجزائري قديما وحتى يومنا هذا لا زال الكثيرون محافظين على هذا التراث الأصيل.

شيخ القرية: صباح يا ابنتي ماذا حصل ما بك؟ هل تشاجرت مع حسان؟ أخبريني.

صباح لا تقوى على الكلام تبكي بحرقة تتلفظ بكلمات غير مفهومة.

شيخ القرية: سم بالرحمان يا ابنتي.

صباح: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

وها هي تتمالك أعصابها وتقص عليه ما حدث بالتفصيل.

شيخ القرية: لا حول ولا قوة إلا بالله السميع العليم لا تقلقي يا ابنتي أنا سأتصرف.

هم شيخ القرية مع مجموعة من الرجال للتفتيش عن حسان بعدما نقل لهم ما قصته صباح بالحرف الواحد كان الرجال يبحثون هنا وهناك تعترضهم نوبات الصقيع والبرد الشديد؛ فتش الرجال كل زاوية في القرية وكل الطرقات وكأنهم يبحثون عن إبرة في كومة من القش.

تنتظر صباح وهي شاردة الذهن نال منها التعب من التفكير وتصور المشاهد.

مر نصف اليوم وها هو شيخ القرية متجه نحو بيت حسان يسوق مجموعة من العجائز.

دق الباب فتحت صباح: خيرا يا شيخ بشرني بشرك الله بمقام عليّ في الجنان.

شيخ القرية: يتلعثم لسانه يا ابنتي أنا أعرفك منذ قدومك لهذه القرية والكل يتحدث عن إيمانك القوي وثقتك بالله.

صباح: ونعمة بالله يا شيخ ونعمة بالله، قل لي هل وجدتم حسان؟

شيخ القرية: لقد بحثنا في كل مكان يا ابنتي جلنا كل أنحاء القرية وما جاورها لكن.

صباح: لكن ماذا أين عساه قد ذهب؟

شيخ القرية: هوني عليك لقد وجدناه وهو في المسجد مع الرجال.

صباح: ما الذي يفعله هناك وموعد صلاة الظهر لم يحن بعد؟

شيخ القرية يمسح عينيه: حسان في ذمة الله.

صباح: كيف؟ لا، لا هذا مستحيل لا يعقل هذا لا يا حسان كيف تغدر بي وتذهب بدوني أنت وعدتني أن تبقى معي طوال العمر.

كنت أعلم أن شيئا مريبا سيحصل فلم يعتد حين خروجه أن يودعني ويودع ابنه، ليتني لم أتركه يذهب ليت الزمان يعود لبضع ساعات.

لعل حسان حين ودع صباح وابنه أمير كان يحس بأن طريق الذهاب لا رجعة فيه.

امتلأت ساحة بيت حسان ومنزله بالنساء قدموا لحضور الجنازة وها هي صباح لا تعرف ما الذي حل بين لحظة وضحاها أهذا هو قدري أهذا هو نصيبي وتبكي بحرقة.

تقدم رجال القرية يحملون نعش حسان بعدما قاموا بخياطة كفنه وتطهيره ككل المسلمين نادوا على صباح لإلقاء النظرة الأخيرة على شريك حياتها.

نظرت صباح وهي لا تعرف حتى ملامحه فهي لم تكد تتعرف عليه بسبب التشوه من آثار الارتطام بالحجارة تبكي

عليه بكل جوارحها حزنت عليه بكل كيانها وتخاطب ابنها ذا البضعة شهور.

هيا طفلي تكلم معه قل له أبي لعله يستيقظ، انهض يا حسان لا تدع أميرنا لكابوس اليتم هيا، هيا لا تترك ابنك يعيش دون أب.

شبح اليتم أعتم حياة الكثيرين ففقدان الأب أو الأم ليس بالأمر الهين خاصة إذا كان الطفل صغيرا لا يعرف مسار طريقه فاليتم يتم لكنه يهون قليلا إذا ما كان الأبناء كبارا راشدين لكن هذا هو القدر.

حمل الرجال جثمان الفقيد وقد أبكت ميتته القاسية كل كبير وصغير وحزنت على فراقه الأحجار والأشجار فما بالك بأهل الديار، رحمك الله يا حسان أنت في قلوب أحبتك حي لا تموت.

مرت الأيام والشهور والسنين على وفاة أمينة وحسان مخلفين وراءهما كتلا من الألم والحزن واليتم.

كان أحمد قد فقد إشراقة وجهه وضياء عينيه أصبح هزيل الجسم رث الثياب يقضي طوال وقته في المقبرة متوسدا قبر زوجته أمينة.

من قال إن الموت تطفئ شرارة الحب وتضعف مكانه في القلوب، فرغم مرور أعوام لم ينس أحمد توأم روحه وما زاد ألمه بنته الكبيرة التي أصبحت في 9من عمرها تدرك كل ما يحيط بها بعدما تركتها أمها في سن الأربع سنوات أصبحت الآن تشتاق لأمها تحن لرؤيتها تقف بجوار الباب

تترقب مجيئها تختبئ في الحمام وتحت السلالم تنتظر لتأتي أمها للبحث عنها تناديها في المنام تكتب وترسم لها في كل يوم يا لها من حياة قاسية فظة غليظة.

وأختها الصغيرة زينب لا تعرف حتى ملامح أمها ولم تشم حتى رائحتها ولم تذق حتى قطرة حليب منها.

وفي المقابل لم يختلف حال صباح عن حال صديق زوجها أحمد فحزنها وشوقها وحبها لحسان يكبر ويزداد يوما بعد يوم.

فهي قد أبت الرجوع لبيت أبيها في مدينة قسنطينة للعيش هناك فقد أكملت عدتها في بيت زوجها وأبت الرحيل كيف تترك قرية أصبحت كل أهلها كيف تترك تفاصيل حياتها وكل شيء كان يربطها بحبيبها فهي تراه في كل مكان تشم رائحته في كل زاوية من زوايا البيت والقرية.

هذا هو الحب ليس له دواء فناره الاشتياق وبنزينه الذكريات.

نعم الذكريات فهي تصب الملح على الجروح كل يوم وفي كل آن.

أمير: ماذا أفعل كرهت من هذه المعيشة ليت أبي على قيد الحياة لكان الأمر هان قليلا وسهلت الحياة.

كم هي صعبة هذه الكلمات فطفل بعمر الزهور يحكي عن مرارة الحياة وهو لم ير منها سوى الشيء القليل، يصف غلاء المعيشة وقصر اليد والحاجة هذه كلمات يتناقش فيها رجال الكبار وأرباب البيوت.

فهذا الطفل الصغير يبني جسورا للمسؤولية التي تنهش جسمه دون طلب من أحد، يحزن لما يرى أمه تتعذب أصبحت المرأة الرجل فهي تقوم بكل الأعمال خارج المنزل من رعي الأغنام وزراعة الحقل، وتقوم بالأعمال المنزلية تارة أخرى وتنهب دقائق في كل مرة لتطريز الثياب وبيعها لتوفر لقمة العيش لهم.

فمنذ وفاة أمينة وحسان طلب عجائز وكبار مشايخ القرية من صباح أخذ زينب لترعاها وتقوم بإرضاعها من حليبها.

كم غريبة لعبة القدر والأيام كم هو غريب ما تخبئه طيات الحياة ها هي تجمع بين يتيم من دون سابق حساب بنت يتيمة الأم وطفل يتيم الأب كم هي غريبة هذه لعبة تجمع **يتيمين** تحت سقف واحد ويصبحان إخوة بعدما كانا غريبين عن بعضهما البعض.

ها هي الشهور تمر كثواني وها هو فصل الصيف يلوح في الأفق معلنا الرحيل وشهر سبتمبر على الأبواب مصاحبا عودة المدارس، فكم هو مكلف هذا الشهر فتوفير الكتب والكراريس ومختلف الأدوات أمر ضروري لابنها أمير فهي تعد القروش والدنانير مرارا وتكرارا جاهدة لتوفير حاجياته دون إنقاص أي تفصيل صغير منها، فهي الأم التي ترضى على نفسها بالجوع والمرض والتعب ولا ترضى بالتقصير.

هذه هي الأم معجزة الخالق في الكائنات، بلسم للمعاناة ترياق للسموم والكدمات.

أمير: أمي سوف أتأخر عن المدرسة أين علبة الغداء؟

صباح: إنها في المحفظة اذهب رعاك الله يا ولدي ركز جيدا في دروسك.

أمير: حاضر يا أمي.

كانت هذه الكلمات تشد العزم لديه فهو يعلم أنه لا مفر من عيشة الفقر سوى الدراسة.

فأمير تلميذ نجيب مهذب على حد تعبير أساتذته فمنذ التحاقه بمقاعد الدراسة لم يسبب أية مشاكل كباقي الأطفال، فهو دائم الانفراد في عالمه الخاص.

ها هي صباح انتهت من تطريز زي العروس خديجة، الزي التقليدي القسنطيني ذو اللون الجميل وخيوطه الذهبية على شكل جوامع كما يسمونها تكاد تخطف الأبصار.

سلمت صباح الزي لأصحابه وأخذت مالا مقابل تطريزها وتخرج مسرعة متجهة لشراء بعض الحاجيات لمنزلها وتدخر شيئا من الباقي وسادا لرأسها في الشدائد.

عاد أمير مبكرا للمنزل على غير عادته شاحب الوجه محمر الأعين ثيابه غير مرتبة كعادته.

صباح: خيرا يا بني ما الذي حصل لك؟ ما الذي جرى؟

أمير: لا شيء لا شيء.

اتجه لغرفته الصغيرة وأغلق الباب رافضا تبريرا أو شرحا أو حتى تناول طعامه.

كانت صباح متوترة تعد الثواني عدا على الأصابع من أجل بزوغ اليوم الجديد لتذهب للمدرسة وتستعلم خبر ابنها.

صباح: السلام عليكم أيها المدير أنا والدة أمير.

المدير: وعليكم السلام، لقد كنت سأدعوك وهأنت ذا.

صباح: خيرا إن شاء الله.

المدير: لقد كان تصرف أمير تجاه أنس تصرفا عدوانيا فقد تهجم على صديق له في وسط الصف ولولا المعلمة لحصل شجار كبير، وعلى حسب قول المعلمة أن أمير من بادر بضرب صديقه لهذا عاقبته عقابا شديدا ألم يخبرك؟

صباح: رفض أن يحكي لي ما جرى.

لكن أيها المدير أليس عقابك ظالما دون أن تتحرى ما الذي جرى؟

المدير: لا عليك هأنت هنا وسنتحرى الموضوع.

المدير ينادي على موظفه: اذهب وأحضر الفتى أمير.

دخل أمير للإدارة منحني الرأس فعند استدعائه كان يجهز نفسه لأشد أنواع العذاب فالإدارة كانت كمركز الاستجواب الفرنسي في عهد الاستعمار.

دخل أمير متفاجأ برؤية أمه هناك.

المدير: تعال إليّ هنا هيا اقترب، هيا احك لنا ما سبب تهجمك على زميلك بالقسم.

أمير: صامت لم يتفوه بأية كلمة.

المدير: هيا تكلم وإلا سيكون الفصل من المدرسة هو الحل الأنسب.

فصل من الدراسة عندما سمع هذه الكلمة انتابه الخوف الشديد وكأن أحلامه ستتدمر بمجرد كلمة واحدة فُصل لأنه يعلم أن منجاه هو الدراسة والنجاح لا غير.

أمير: ما ذنبي إن كنت يتيم الأب فهو دائما ينعتني باليتيم ما ذنبي إن كنت فقيرا لا أشتري أغلى الثياب والأحذية ما ذنبي إن حضرت أمي اجتماع الأولياء وسط الرجال لأنه ليس لدي أب وما ذنبي في كل هذه الحياة فلست أنا من كتبت قدري ما ذنبي ما ذنبي، يبكي هذا الطفل بحرقة انفجر كبركان خامد سجل كل هذه الأحاسيس والمضايقات ولم يشتك قط لكنه أدرك أنه في بعض الأحيان أن الصمت دليل على الضعف ويجلب الذل في كثير من الأحيان.

صدق سيدنا **عثمان بن عفان** ﷺ عندما قال (لو كان الفقر رجلا لقتلته) فهو شبح يفترس الفقراء والضعفاء وسط مجتمع طبقي همه المال لا أكثر متجاهلين النفوس والمعنويات.

كلمات الطفل أمير كانت كالرصاص.

المدير: حسنا عد إلى قسمك.

صباح: كنت أعلم أن هناك خللا في الموضوع صحيح أن الفقر واليتم هو من اختارنا من بين الناس فكم من فقير حسن الخلق وكم من غني جاهل للمبادئ.

كلمات لبؤة جريحة بسيوف القهر والظلم.

من قال إن المثقف والمتعلم فقط من يعرف اقتناء الكلمات والتعبير فكلماتها يعجز رواد المعاهد على فك صلابتها.

المدير: أنا حقا متأسف وتلعثم لسانه.

صباح: الآن بعدما سمعت الحقيقة وجب إعطاء الطفل الآخر نصيبا من التأديب ليس انتقاما منه لكن ليتعلم ويأخذ دروسا في الأخلاق لأن فترة الصغر فيها يتعلم الصغير دروسه ويمشي بها في طريق الكبر.

المدير: أنا أكرر تأسفي لكن لا يمكنني عقابه.

صباح: ولماذا لا تستطيع عقابه؟؟

المدير: إن أباه من أهم الممولين للمدرسة بكل المعدات فعجز الدولة لا يمكن تداركه إلا بالاستعانة بالرجال الذين يملكون المال وأبوه واحد منهم وإذا حصل وعاقبته سيسحب أبوه الإعانة أنا جد آسف.

صباح غليها البكاء: حسبنا الله ونعم الوكيل كفى بالله وكيلا.

لا يستطيع الأغنياء وأصحاب المال شراء كرامتنا فنحن لسنا سلعة تشترى وتباع وليس مالهم حجة علينا لظلمنا وقهرنا، وخرجت مسرعة من قاعة المدير باتجاه باب الخروج.

كلمات أخرجتها أم بمرارة وحرقة دفاعا على نفسها وابنها.

لعل درسا في الأخلاق من امرأة ريفية لشخص متعلم ومثقف ذي مكانة هو أنسب شيء فكلماتها حادة كالسيف تسبب جروحا لا تشفى على مر الزمان.

هذه هي الحياة لعل المال والجاه هو أحد قوانينها الثابتة فطغيان أصحاب الجاه والمناصب خلف سوادا عاتما على كل السكان وأفسد أنظمة الحكم ونهب وأكل أموال الجزائريين من غير حق فكرامة الناس أصبحت تشترى وتباع بسبب الفقر.

أه ما أبشع هذا الوقت الذي أصبحت عليه شؤون وأحوال البلاد والعباد.

مرت الأعوام وها هي زينب تكبر رويدا رويدا عند أمها صباح التي أرضعتها وتولت رعايتها بعدما قصت عليها كل ماضيها وعرفتها بأهلها وأقاربها.

وها هو أمير يكبر وينضج نعم الأمير لطالما يرتبط هذا الاسم بالمال والقصور والحكم إلا أن اسمه ارتبط باليتم والفقر والحزن.

كانت الساعة تشير للسابعة مساءً ها هي صباح جالسة على الكرسي الخشبي قرب موقد الجمر مجعدة الوجه منحنية الظهر فقد رحل شبابها ورحلت قوتها بعد هذا السن؛ جالسة تحكي لابنتها زينب التي أصبحت فتاة نالت من الحسن والجمال نصيبا وفيرا؛ تحدثها عن حياتها وألمها لتأخذ العبرة وتلقنها دروسا في الحياة.

ففاقد الشيء هو الجدير بالتحدث والتكلم عنه فزينب تحس بكل كلمة من كلماتها تحس بألمها في كل حرف تنطقه فهي رغم شبابها قد مرت عليها أوقات تمنت لو أن أمها معها وها هي ذا اليتيمة على مشارف الزواج يتقدم الشبان لخطبتها.

بينما تتبادل الأم وابنتها أطراف الحديث دق باب منزل على غير المعتاد.

صباح: من يا تراه الزائر.

زينب: أنا سأفتح وألقي نظرة.

فتحت الباب ثم دخلت مسرعة تنادي على أمها:

- أمي هناك رجل غريب يقف بالخارج هلا رأيته.

صباح: حسنا سأرى لعله عابر سبيل واحتاج شيئا.

صباح ترتدي نظارتها تمشي ببطء، نعم ماذا تبحث هنا يا سيد؟

أنا **أميريا** أمي ألم تعرفيني؟

صباح: ماذا لا تمازحني أرجوك.

أمير: أي مزاح أنا ابنك الوحيد يا أمي أنا أمير.

كلمات اختلجت في باطن الأم أيعقل هذا أيعقل عاد بعد كل هذه السنين عاد بعد طول الفراق وكثرة الاشتياق وكبر حبه في أعماقي نعم فلذة الكبد عاد.

ترك أغراضه وعانقها مبللا طرفها بالدموع.

أمير: كم اشتقت لحضنك الدافئ يا أمي، كم اشتقت لرائحة عطرك بزهور الحقل، كم اشتقت لملامحك عطرك شكلك، لقد تغيرت كثيرا.

فبعد نجاح أمير في شهادة البكالوريا بمعدل ممتاز أخذ منحة للدراسة في فرنسا فمنذ نعومة أظافره حلم بذلك وترسخت في ذهنه دراسة تخصص الحقوق نعم فلعل المواقف التي تعرض لها وظلم الحياة والبشر أجبرته على ذلك فهو رغم طول السنين وكبر سنه لم ينس عقاب المدير له من غير ذنب، لم ينس مرارة عيشته لم ينس كل صغيرة وكبيرة فشريط حياته يشاهده أمام عينيه يوميا قبل النوم كأنه في إحدى قاعات السينما العالمية.

بدراسة الحقوق ليصبح محامي هو السبيل الوحيد لحماية الناس في ظل الأوضاع الراهنة في المجتمع.

أطلقت صباح زغاريد متعالية فرحة برجوع ابن الغربة رجوع قلبها الضائع منذ سنوات في شوارع الأيام.

فالزغاريد إحدى السمات المميزة للمجتمع الجزائري تتعالى في كل أجواء السعادة والفرح، فالأعراس والحفلات والنجاحات لا تخلو من هذا الطقس؛ كم عظيمة هي عاداتنا وأعرافنا.

دخل غائب سنين لبيته في جو تغمره سعادة أمه وأخته راح يتجول متأملا بيته الذي لم يتغير فيه أي شيء مع طول سنين الغياب ولا حتى تفصيل صغير.

صباح تكاد تطيرا فرحا برجوع ابنها تتجه للمطبخ لتحضير طبق الكسكس الذي يحبه أمير كما أنه من أشهى الأطباق الجزائرية وحاضر في كل البيوت فهو رمز للتلاحم وصلة الأرحام فهو حاضر في الأفراح والأقراح والولائم ولا يستطيع أحد الاستغناء عن هذا الطبق.

حل المساء واجتمعت العائلة متشوقة لإطفاء نيران الشوق من ابنها فقد كانت أسرته تبادله الرسائل من حين لآخر تصف أحوالهم وأمورهم وهو كذلك يبادل بالرد.

ففي آخر رسالة قبل أسابيع طلبت منه صباح القدوم إلى البلاد فهناك من يود التقدم لخطبة زينب وهو رجل البيت وولي أمرها بعد وفاة والدها أحمد الذي فتكت به الأشواق وقتلته نيران الحب لزوجته فكان يقضي ليله ونهاره متوسدا قبرها فنال منه التعب والوهن حتى توفي رحمه الله لاحقا زوجته أمينة لتكملة دربهما في جنات الفردوس بإذن الله.

تحدثت صباح وقصت له كل ما جرى في كل هذه السنوات بأدق التفاصيل حكت له عن أهل الشاب الذي يريد خطبة زينب وكل شيء لم تنس أي شيء.

بعد مرور أيام قدمت عائلة الشاب لخطبة زينب لزيد الذي كان يعمل في مستوصف القرية.

كان زيد معجبا بأخلاق زينب وحيائها متأثرا بتحري ماضيها وحياتها التي عاشتها وهكذا تعلق بها قاطعا على نفسه عهدا أن يغمرها حبا ودفأ ويعوضها على ما فاتها.

هذا هو الرجل الأصيل إذا أحب يحب بكل جوارحه يقدس محبوبته يحن عليها يجعها تعيش خير معيشة يلبسها ثوب الراحة والأمان فمن قال إن العنف والجفاء من شيم الرجال فالضرب والاستهزاء والسخرية وجعل المرأة كالجارية من سمات الجاهل الظالم فالرجل مهما كان خشنا إلا أنه يملك قلبا فالرجل ابن أمه في الصغر ومدلل زوجته بعد الكبر.

تمت الخطبة بنجاح بناء على رضا وتفاهم كل الأطراف فبعد الخطبة تم عقد العديد من الجلسات بين العائلتين للتفاهم حول الشروط وتحديد موعد العرس.

زينب: هل كل شيء جاهز؟

صباح: لا تقلقي يا ابنتي اليوم يومك لا تشغلي نفسك بهذه الأمور سأعود بعد قليل.

زينب جالسة في الوسط تجتمع حولها أختها الكبرى وصديقتها في الدراسة وبنات القرية اللواتي في سنها يزينها ويساعدنها في ارتداء ملابسها.

فالعروس الجزائرية في يوم عرسها ترتدي مختلف الأثواب التقليدية لمختلف مناطق وولايات الجزائر.

وها هي الآن ترتدي الزي الأمازيغي القبائلي وهو قماش تطرز عليه أشكال بمختلف الألوان الزاهية الدالة على الفرح والسعادة وتضع فوق هذا الزي فوطة كما يسمونها.

اهتمت زينب بهذا الزي خصيصا لأن زيد ابن جبال يما قوراية ابن القبائل لهذا وجب عليها أن تكون في أحلى صورها في هذا الزي.

فها هو زيد المحب الوفي يرتدي برنوسه والفرحة عارمة بين أهله وأحبته فهو أخيرا على وشك الاستقرار بعدما نال منه التعب لسنين طويلة، فقد درس وتخرج من الجامعة وتعسر عليه إيجاد عمل في المستوصف أين يقيم فاضطر للبحث هنا وهناك إلى أن وجد مكانا شاغرا في إحدى القرى في ولاية برج بوعريريج.

ومن يدري لعلها أقدار شاءت أن ترسله إلى هناك لبدء مشوار حياته، كانت الفرحة عارمة تغمر العائلتين.

خرجت صباح من غرفتها وصوت زغاريد يتعالى وصوت الغناء يعم المكان ذهبت باتجاه غرفة ابنتها زينب تحمل شيئا بين يديها ملفوفا في قماش أبيض بعناية نظرت إلى ابنتها وقالت حماك الله من أعين الحساد فاليوم يومك وفرحك له ميعاد ما شاء الله.

فتحت صباح قطعة القماش وإذ به اللباس التقليدي لمدينة قسنطينة ما يعرف ب **"جبة الفرقاني"** كان زيا متميزا يلفت الأنظار لا يشبه أي زي سبق وصنعته بخيوط مختارة بعناية هندسة للرسومات تعجز أدق الآلات عن إنجازها هذا آخر عمل لها فبعد كبرها وتعبها لم تعد تستطيع التطريز فقد تعبت عيناها وهي الآن ترتدي نظارات وأصابها الربو أيضا فأصبحت لا تقوى على لمس الصوف والقماش

بعدما أخبرها الطبيب أنها ستؤذي نفسها في حال فعلت ذلك فالدواء غير متوفر بسهولة ونوبات العطاس الشديد قد تؤدي لتوقف قلبها ضعيف الدقات.

طلبت صباح من زينب ارتداء الزي، لكن قابلتها زينب بالرفض ولفت الزي وخبأته في الخزانة وأغلقت بابها بإحكام.

تبادر لأذهان الحضور عدة تساؤلات ما سبب هذا التصرف يا ترى؟ هل هي ترفض هذا الزي لأنه لم يعجبها؟ أم هناك خلفيات أخرى وراء هذا التصرف؟

صباح: ما بك يا زينب ألم يعجبك هذا الزي؟ لماذا لم ترتديه أو حتى تجربيه يا ابنتي؟ ما خطبك فجأة؟ أجيبيني؟

زينب: أنا يتيمة الأم منذ الصغر ولم أعرف حتى طعم حنانها طيلة حياتي وأنت من ربيتني وسهرت على كل شيء سأقول لك سبب رفضي لارتداء هذا الزي الآن أنت هي أمي وأنت ابنة مدينة قسنطينة وإحدى بنات البلديات كما يسمونكم (فمصطلح البلديات يطلق على بنات القصبة العتيقة في مدينة قسنطينة اللواتي يهمهن التراث والعادات والتقاليد) وأنا سأرتدي هذا الزي غدا عند قدوم موكب العرس لأخذي وسأخرج من هذا البيت بزيي الذي أعددته لي فأنا هكذا أكون قد حققت ولو جزءا قليلا من عادات مدينة الجسور المعلقة.

ففي مدينة قسنطينة عند خروج العروس من بيت أبيها ترتدي الزي القسنطيني للحفاظ على أصالة التراث

والاقتداء بعادات الأسلاف، هكذا هي العادات في كل ولايات الوطن فكل عروس تخرج من بيتها بالزي التقليدي للمنطقة التي تعيش فيها.

صباح: بوركت يا ابنتي والله هذا كرم وحب منك لعلي نسيت تقاليدي بسبب الكبر ولكن الحمد الله أن لي بنتا تهمها كل أعرافنا ولا تنسى شيئا منها.

مضت تلك الليلة بفرح وحب وصوت الزغاريد والغناء والضحك صادر من بيت صباح الذي لطالما خيم عليه الحزن والهدوء والسكون ها هو الفرح يدخل بيتها بعدما نسيت طعمه لسنوات طويلة.

بزغت شمس يوم جديد وموكب العريس يقترب لأخذ العروس؛ ارتدت زينب لباسها ووضعت زينتها وجهزت كل أغراضها.

تقدم زيد نحو الباب لأخذ زوجته وحبيبته التي جمعت بينهما الأيام والأقدار أتى ليأخذها إلى مملكته الزاهية التي تقع في أعالي جبال القبائل.

مشت زينب والبرنوس يغطيها حتى إنها لا تكاد ترى الطريق أمامها وأمير ممسك بيدها ويدلها على المسار.

فعادات وتقاليد الجزائريين أن العروس يجب أن تخرج في ستر من البيت وتخفي زينتها عن الأجانب لهذا تغطي بالبرنوس لسترتها أو الحايك.

ها هي قد وضعت على كتفيها برنوس حسان الذي آواها منزله وربتها زوجته وساندها ابنه الذين أصبحوا أهلها

وعائلتها، ها هي اليوم تحظى بقسم من حنانه عليها رغم وفاته يوم ولادتها.

خرجت العروس من تحت ذراع أخيها أمير ليسلمها لزوجها وأهله ويوصيهم بها خيرا فهي أمانة والله أوصانا بحفظ الأمانات، ها هي صباح حققت أولى أمنياتها وقد زوجت ابنتها وقد أجهشت بالبكاء والدموع أحرقت عينيها فقد تعودت على وجود زينب من حولها فقد كانت هي رفيقتها وصديقتها وكل شيء تحكي لها أوجاعها وأحاسيسها تسرد لها قصصها.

مرت شهور على زواج زينب وقد تبادلت الكثير من زيارتها لبيت أمها وهم كذلك يتفقدون أوضاعها وأحوالها ويتبادلون الاتصالات معها في كل آن.

دق الهاتف الأرضي لمنزل صباح.

زينب: أهلا أمي لك عندي خبر جميل.

صباح: أهلا يا ابنتي أخبريني هيا أفرحيني.

زينب: أنا حامل يا أمي.

صباح: حقا مبارك عليك مبارك سأخبر أمير وأعاود الاتصال بك بلغي تهاني لزيد.

ها هي صباح على وشك أن تصبح جدة عن قريب وترى أول أحفادها.

صباح: أمير مبارك عليك ستصبح خالا.

أمير: ماذا هل هذا صحيح كم هو شعور جميل.

صباح: نعم وأنا سأصبح جدة إن شاء الله، لكن ما زالت لدي أمنية أود تحقيقها يا بني.

أمير: اطلبي يا أمي وأنا ألبي.

صباح: أود أن أفرح بك أيضا وأرى أحفادي يلعبون أمامي قبل أن يأخذ الله أمانته، هلا حققت لي طلبي.

أمير: كنت أنتظر الوقت المناسب لأفاتحك في موضوع فقد قطعت على نفسي عهدا أن أدرس وألتحق بعمل جيد وأشتري سيارة وأشتري بيتا وقد حققت كل هذا والحمد لله والآن سأحقق حلمك وأتزوج إن شاء الله لا أطلب شيئا سوي رضاك عني.

صباح: ولك كل الرضا يا ابني حفظك الله.

تزوج أمير وأسس أسرة ورزق بمولود صغير أسماه حسان على اسم والده رحمه الله، فرحت صباح بحفيدها وغمرته حبا وحنانا ربما اسم حسان حرك حبها وشوقها لزوجها هذا ما جعلها تحب حفيدها الصغير كثيرا وربما كل هذا الحنان المخبأ لابنها الذي حرم من كل شيء وعاش مغتربا في شوارع اليتم من جهة ومن جهة أخرى بعيدا عنها لتحقيق طموحه ربما هي تريد تعويض حفيدها عن كل ما فات أباه وما كنته هي من مشاعر في قلبها.

شاءت الأقدار أن تخطف المنية صباح وتسكنها بجوار ربها بعدما حجت بيت الله الحرام ووقفت أمام الكعبة الشريفة، بعدما ارتوت من ماء زمزم، بعدما سعت بين الصفا والمروة، بعدما وقفت في جبل الرحمة.

رحلت وهي بين يدي الله في طواف الوداع بعدما أكملت كل مناسك الحج ودفنت في خير الأماكن نعم دفنت في البقيع مع كل الصحابة والمؤمنين ومحمد أشرف وخير الخلق والمرسلين.

فقد حقق أمير حلمها بزيارة الكعبة وحج بيت الله فحبها وإيمانها بالله عز وجل كان مصدر قوتها وصبرها وقوى إيمانها وها هو التراب الشريف يغطي جسدها والكعبة الشريفة قبلتها.

هذا هو الولد الصالح البار بوالديه فبالرغم من أنه لم ير والده إلا أنه لا يبخل عليه بالدعاء والصدقات وقراءة القرآن وأعمال الوقف، وأمه عوضها في حياتها عن كل شيء فقدته وعن كل عناء تكبدته ورحلت وهي بين أحضان الملك وجنود الله المبجلين بالكعبة خدما وطائفين.

عاش أمير بعد وفاة أمه مع زوجته وأبنائه حياة سعيدة يلقن أبناءه الدروس التي علمتها إياه أمه في الصغر مفيدهم بنصائحها وصبرها وحبها وتعلقها بالله عز وجل، يعيش ويقتات على ذكرياتها وصورها يذكر أبسط تحركاتها يشم رائحة عطرها العالقة في ذهنه، يهتم بكل غرض هو لها ينام على سريرها يقرأ لها القرآن بعد صلاة الفجر يبادر لفعل الخير ومساعدة الضعفاء والمحتاجين كما كانت تفعل مقتديا بخير من وضعت الجنة تحت قدميها نعم هي الأم الصالحة.

لقول الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها .... أعددت شعبا طيب الأعراق.

انتهى

انتهت كتابتها 20أفريل 2020.